المحاضرة التاسعة: النزعة الخلدونية في الفكر المعاصر:توظيف الفكر الخلدوني بين العلم والأيديولوجيا .

إن ابن خلدون لم يمت عام 1406، بل هو بيننا اليوم، يشاهد بدهشة كيف تحولت أفكاره إلى **عملة فكرية** يتداولها الجميع: السياسي والإعلامي والأكاديمي والثوري. اليوم سنقوم بتشريح هذه الظاهرة الفريدة: كيف تحول فكر رجل من القرن الرابع عشر إلى **مرجعية متعددة الوجوه** في القرن الحادي والعشرين؟

(1) الإطار النظري: تشظي التراث وتعدد القراءات

ينطلق تحليلنا من فرضية أساسية" :**كل جيل يقرأ ابن خلدون من خلال عدسات مشاكله وأسئلته** ."وهذا ما يفسر تعدد "الخلدونيات" في عصرنا.

(2) التوظيف العلمي: ابن خلدون كمنظر مؤسس

أولاً: في حقل السوسيولوجيا التاريخية

- **التأسيس المبكر** :يعاد اكتشاف ابن خلدون كأب مؤسس للسوسيولوجيا قبل أوغست كونت بقرون
- **نظرية التغير الاجتماعي** :تستخدم مفاهيمه (العصبية، دورة الحضارة) كنموذج تحليلي للتغير الاجتماعي طويل المدى
- **علم الاجتماع المقارن** :توظيف منهجه المقارن في دراسة التحولات المجتمعية

ثانياً: في الاقتصاد السياسي

- **نظرية الدولة والضرائب** :استخدام تحليله لدور الضرائب في تطور الدولة
- **اقتصاديات الريع** :تطوير مفهوم "الدولة الريعية" انطلاقاً من تحليله لاقتصاديات الدول
- **سوسيولوجيا المال** :توظيف رؤيته حول العلاقة بين الاقتصاد والمجتمع

ثالثاً: في علم التاريخ

- **نقد السرديات التاريخية** :استخدام منهجه النقدي في تمحيص الروايات التاريخية
- **التاريخ المقارن** :تطوير منهجيات مقارنة مستوحاة من مقاربته.

(3) التوظيف الأيديولوجي: الاستخدامات السياسية للفكر الخلدوني

أولاً: الخلدونية المحافظة (السلطوية)

- **الخطاب** :يستخدم لشرعنة الاستبداد عبر التركيز على:
  - ضرورة الدولة القوية
  - خطورة انهيار السلطة
  - أهمية الاستقرار بأي ثمن
- **التوظيف**" :الدولة ضرورة كما قال ابن خلدون" - "البديل هو الفوضى"

ثانياً: الخلدونية الثورية (التغييرية)

- **الخطاب** :يستخدم لتبرير الثورات عبر التركيز على:
  - حتمية سقوط الدول
  - دور العصبيات الجديدة
  - قانون دورة الحضارة
- **التوظيف**" :الدولة في طور الانهيار" - "لابد من عصبية جديدة"

ثالثاً: الخلدونية الإصلاحية (الوسطية)

- **الخطاب** :يستخدم للدعوة لإصلاح النظام القائم عبر:
  - تشخيص أمراض الدولة
  - الدعوة لتجديد العصبية
  - التحذير من الترف والفساد.

(4) صراع القراءات: من يملك ابن خلدون؟

أولاً: القراءة العلمانية

- **تؤكد على** :عقلانيته، منهجيته العلمية، تحرره من الدين
- **تتجاهل** :مرتكزاته الإسلامية، مفهومه للخلافة

ثانياً: القراءة الإسلامية

- **تؤكد على** :إسلاميته، مفهومه للخلافة، انتقاده للفلسفة
- **تتجاهل** :عقلانيته الصارمة، تحليله المحايد للمجتمع

ثالثاً: القراءة القومية

- **تؤكد على** :عروبته، تحليله للعصبية
- **تتجاهل** :عالميته، تحليله للمجتمعات غير العربية

رابعاً: القراءة الغربية

- **تؤكد على** :سبقه للعلوم الاجتماعية الغربية
- **تتجاهل** :خصوصية منظوره الحضاري الإسلامي

(5) التشويهات المنهجية: اغتيال التراث فكرياً

أولاً: الاقتطاع الانتقائي

- **المشكلة** :أخذ أفكار منعزلة عن سياقها النظري
- **مثال** :استخدام مفهوم "العصبية" دون ربطه بنظريته الشاملة

ثانياً: التبسيط المخل

- **المشكلة** :تحويل نظريته المعقدة إلى شعارات بسيطة
- **مثال** :اختصار فكره في "الدورة الخلدونية" فقط

ثالثاً: الإسقاط المعكوس

- **المشكلة** :قراءة أفكار معاصرة في نصه
- **مثال** :اعتباره ديمقراطياً أو اشتراكياً

رابعاً: التجريد من السياق

- **المشكلة** :فصل أفكاره عن سياقه التاريخي والحضاري
- **مثال** :دراسته كمنظر اجتماعي مجرد دون ربطه بالعالم الإسلامي

(6) نحو قراءة متوازنة: استعادة ابن خلدون من براثن الأيديولوجيا

أولاً: شروط القراءة المتوازنة

1. **السياق التاريخي** :فهم عصره وتحدياته
2. **الكلية المنهجية** :ربط أفكاره بعضها ببعض
3. **النزاهة العلمية** :تجنب التوظيف الأيديولوجي
4. **الإبداع النقدي** :تطوير فكره لا تكراره

ثانياً: آليات التوظيف العلمي الرصين

1. **النمذجة التحليلية** :استخدام مفاهيمه كنماذج تفسيرية مرنة
2. **المقارنة النقدية** :مقارنة نظرياته بالنظريات المعاصرة
3. **التطوير المنهجي** :بناء على أسسه المنهجية
4. **النقد البناء** :نقد أفكاره في ضوء المعرفة المعاصرة

إن الخطر ليس في توظيف فكر ابن خلدون، بل في **احتكار قراءته** .إننا نحتاج إلى:

- **ابن خلدون كجسر** للحوار بين التخصصات
- **ابن خلدون كمنهج** للتفكير لا كمادة للحفظ

- **ابن خلدون كإلهام** للإبداع لا كسلطة للتقليد

إن فكر ابن خلدون يشبه **مدينة قديمة**:

- **الأيديولوجيون** يهدمونها ليبني كل منهم عمارته فوق أنقاضها
- **والعلماء** الحقيقيون يدرسونها ليفهموا أسرار بنائها، ويقتبسون من هندستها لبناء عمارات جديدة

لنكن من الصنف الثاني: بناة لا هادمين، مبدعين لا مقلدين، حوارين لا صداميين.